التربيــة في الإســــلام ودور المســجــد فيهـــا

دكتـــور
نبيـل احمـد عامر صبيـح
أستاذ مساعد بقسم أصــول التــربيــة

مقدمة في أهمية موضوع الدراسة :

موضوع هذه الدراسة يقتصر على جانب واحد من الجوانب الكثيرة التي تضمنتها التربية في الإسلام وهو دور المسجد في هذه التربية . وما دفعنا إلى هذه الدراسة إلا إدراكنا أنه على الرغم مما كتب – وما أكثره – عن التربية في الإسلام ، كان يتبع أسلوباً يكاد يكون واحداً في معظم هذه الكتابات ، إذ تبدأ الدراسة في الغالب الأعم بتحديد أهداف التربية في الإسلام وتنتهي بعرض مؤسسات التعليم في الإسلام . غير أننا نرى أن خير ما يبين أهداف التربية في الإسلام وخصائصها وسماتها التي تميزت بها ، أن ندرسها من خلال مؤسساتها ومنشآتها ، بالإضافة إلى دراستها عن طريق مناهجها وأساليبها . وسنقصر موضوع هذه الدراسة الحالية على مؤسسة تربوية واحدة هي المسجد باعتبار أن تاريخ التربية في الإسلام قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد ، ولذلك فإن الحديث عن المسجد إنما هو حديث عن المؤسسة الرئيسية في الإسلام التي ساهمت في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية وهما دعامتا الحضارة العربية الإسلامية .

وتاريخ المسجد في الإسلام حافل بأعظم ما في التراث الحضاري الإسلامي من خصائص وقيم حضارية بهرت الغرب الأوروبي ومازالت تبهره حتى اليوم . ذلك أن المسجد هو أول المؤسسات الإسلامية التي انطلق منها شعاع العلم والتعلم في الإسلام على كافة البشر حيث كان يلتقي فيه الطلاب بالعلماء يناقشون ويتحاورون فيما يعن لهم من مشكلات ومسائل فقهية

أو علمية بحته ، حتى قيل بحق أن آلاف أعمـــدة المساجد التي كانت منتشرة في العـــالم الإسلامي كانت محاطة بآلاف من العلماء المسلمين وعشرات الآلاف من المتعلمين . فكأن حلقات الدراسة قد قامت في المسجد منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مر السنين والقرون ، وفي مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع .

وقبل أن نحلل الدور الثقافي الذي لعبه المسجد في تاريخ التربية في الإسلام لابد وأن نقدم لبعض المفاهيم حول الإسلام والحضارة والعلم ، مع تحليل لبعض مفاهيم التربية في الإسلام من حيث أهدافها وخصائصها وسماتها ومناهجها تلك التي تفسر طبيعة عملية التعليم في أهم مؤسسات التربية في الإسلام وهو المسجد .

الاسلام والحضارة والعـــلم :

ظهر الإسلام ثورة على الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية والعالم المعروف في ذلك الوقت . « وتكون مجتمع إسلامي ودولة إسلامية وتربية إسلامية على أنقاض المجتمعات والحضارات والتربية القديمة ، ومرت الدولة والمجتمع والحضارة والتربية بتغيرات كثيرة » (١) .

ذلك أن الإسلام انتقل بالعرب من المحلية الضيقة في الجزيرة العربية إلى العالمية في الإمبراطوريات المجاورة في الأمصار ، ولم يقف الإسلام عند العروبة ، وأن كان العرب هم العنصر الفاعل في البداية لأنهم كما قال عمر بن الخطاب « مـــادة الإسلام » ، ودخلت شعوب أُخرى أكثر تقدماً ، منهم الفرس وسكان الشام من رعايا الروم ومنهم الأقباط في مصر وغيرهم ، فغير الإسلام من حياتهم ، وصبغ هذه المجتمعات بصبغته مع المحافظة على ذاتية هذه الشعوب .

هذا الإسلام الذي نادى بالتوحيد استطاع أن يشعر العالم المشتت الأطراف بوحدته ، وأن يجعل هذه البيئة المترامية الأطراف حول الرافدين وحول النيل وامتداداً إلى الشرق في أرض فارس حتى ما وراء النهر ، وغرباً عبر برقة والمغرب وبلاد الأندلس ، تشعر بأنها تكون حضارة واحدة يربطها رباط واحد ، وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية .

وتعد الحضارة العربية الإسلامية واحدة من الحضارات الإنسانية العالمية التي كان لها أثر عظيم على نطاق واسع . وقد ازدهرت في أُخريات القرن السابع الميلادي وامتدت إلى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا والأندلس وفارس ، وامتازت بتسامحها ونزعتها العالمية ورفعها لشأن الإنسان والاعتداد بحقوقه ، وقد حفظت التراث القديم وغذته ونمته وتأثرت بها القرون الوسطى المسيحية والنهضة الأوروبية الحديثة .

هذه الحضارة العربية الإسلامية « التقليدية » كانت وقت ظهورها حضارة تقدمية حديثة . وكان النزوع إلى العقل إحدى ظواهر الفكر الإسلامي التي برزت في وقت مبكر من تاريخ هذه الحضارة . وكان التعليم فيها أداة للتحديث ، قبل أن تضعف وتتجمد ، وتتحول إلى التقليد ، وتتحول معها أهداف التعليم إلى المحافظة . « فقد مرت هذه الحضارة بدورة حياة كاملة ، من بزوغ فجرها في القرن السابع الميلادي إلى اكتمال نورها في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، إلى غروبها الطويل الذي امتد حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي » (٢) .

لقد سجل التاريخ الإسلامي منذ ألف وأربعمائة عام فتح أبواب الحضارة لشتى العلوم والفنون والآداب بوحي من المعجزة الكبرى « القرآن الكريم » . ومن مكة المكرمة مهد الإسلام ومن جامعات دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وفارس وأصفهان وغيرها ، بعثت ثروة عظمى من العلوم الإسلامية التي أثرت أثراً ملموساً في الغرب الأوروبي الذي يدين لهذه الثروة العلمية في بعثه أيام النهضة على أعتاب العصور الحديثة .

ومن هذه الحضارة العربية الإسلامية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات ، سوريانيون وفرس وصابئة ومسيحيون ونساطره ويونانيون وأقباط من مصر وعبرانيون وهنادكة وأتراك وذميون ، ولكن بلسان عربي وفي ظل الدين الإسلامي الحنيف .

وكان السر وراء التقدم العلمي وانتشار المعرفة في الحضارة العربية الإسلامية « يكمن في جوهر العقيدة الإسلامية التي تدعو إلى التوحيد ، والحرية الفردية ، والأُخوة في الإنسانية ، والمساواة أمام الله ، والتكافل في المجتمع . وقد شرعت الفرائض الدينية لتجعل من هذه

المبادئ خصائص حية ومنها العلم حيث اعتبره الإسلام فريضة . . على كل مسلم ومسلمة . . يطلبانه ولو في أقاصي الصين ، من المهـــد إلى اللحـــد » (٣) .

وجاء النبي الكريم يزكي الأُميين ويعلمهم : « إنما بُعِّثت مُعلِما » . ويجعل من العلماءُ « ورثة الأنبياءُ » . هؤلاء العلماء لم يكونوا إلا مدرسين ، ولم يكن المدرسون إلا علماء »(٤) . ولسمو المكانة التي ارتفعوا إليها في المجتمع الإسلامي ، تمنى خليفة مهيب كالمأمون ، أن لو كان مدرساً يتحلق الطلاب من حوله وهو يفتيهم في مسائل الحديث والعلم.

وكما أوجب الإسلام على المسلم أن يطلب العلم وأن يتعلم ، فقد أوجب على العالم ألا يكتم العلم ، وأن يعلم(٥) . هذه الروح الدينية حركت الناس – جميعاً – إلى التعلم والتعليم ، فلم يكونوا مسوقين بقرارات حكومية ، وسلطات إدارية ، ولكن بالتزام أدبي أقوى من كل التزام ، وأصبحت « الدراسة صلاة » كما يقول « ابن مسعود » الصحابي الجليل .

فبالمعرفة يستطيع الفرد المسلم أن يحدد مكانته ويبني مجده ، وبها يستطيع أن يتفوق على غيره .. والآية تقول : « (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ). ثم إن تحصيل العلم في الإسلام هو خير ما يتقرب به الكبير إلى ربه . وفي الإشارة إلى ذلك يقول الرسول الكريم : « لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة » . إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية التي قررت في صراحة ، أن « العلم خير من العبادة » . ومن ناحية أُخرى فإنه ينبغي أن يحرص المسلم الكبير على النمو المستمر في مجال المعرفة ، وعلى الإسهام في نشرها ، ومن تعاليم الرسول الكريم « اغـــد عالماً أو متعلماً ، أو مستمعا أو محباً ، ولا تكن الخامسة فتهلك » ، والخامسة التي فيها الهلاك – وفقاً لما قرره بعض السلف – هي معاداة العلماء وبغضهم (٦) .

من ذلك كله يتبين أننا عندما نتحدث عن الإسلام على أنه « دين » . فإنما نود أن نضيف إلى أنه أكثر من أن يكون مجموعة من الطقوس والعبادات ، إذ أنه يمتد إلى جوانب متعددة من حياة الفرد ومن حياة المجتمع . ولذلك فإننا نميل إلى شرح معنى « الدين » بالنسبة للإسلام على أنه طريقة للحياة . ومن هنا كانت العناية بالكبار فهم الذين توجه إليهم الدعوة لدخول الدين الإسلامي ، وهم الذين يتلقون مبادئه .

« والكبار هم المكلفون بدخول « الدين » الإسلامي . وبين هؤلاء الكبار يقوم الرسول الكريم بنشر تعاليم الإسلام بنفسه . ومكان التعليم هو المنزل قبل إنشاء المساجد (٧) . وفي المسجد كان يتم تدبير الكثير من شئون المسلمين ، ولم يكن عجيباً أن ارتبط التعليم بالمسجد لزمان طويل . ففي كل مسجد يقام كانت تقوم بداخله مدرسة ، بل مدارس فكرية وعلمية ودينية ، وكان الكبار يؤدون في نفس المكان ، قبل الصلاة أو بعدها ، شعائر العلم من تعلم وتعليم . « وهكذا تكاثرت حلقات الدراسة بالمسجد ، وتعددت مجالس العلم فيه ، وأصبح بيئة تربوية مفتوحة ، غنية بكل أنواع الخبرات والمعارف اللازمة لحياة الفرد والمجتمع »(٨) .

وقبل أن نتحدث تفصيلياً عن دور المسجد بصفة عامة في التربية في الإسلام ، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على بعض مفاهيم التربية في الإسلام من حيث أهدافها وخصائصها وسماتها ومناهجها ومؤسساتها ، تلك التي تفسر طبيعة عملية التعليم في مؤسسات التعليم الإسلامي وخاصة المسجد ، وتبين كيف لعب المسجد ذلك الدور الرائع في تاريخ التربية في الإسلام .

بعض مفاهيم التربية في الاسلام – تحليل ثقـــافي :

في التحليل الثقافي للتربية في الإسلام نجد أنها تركت تراثاً هاماً للحضارة العالمية ، يتمثل في كثير من الخصائص الفريدة التي تميزت بها . ذلك أن التربية في الإسلام اتصفت بخصائص وسمات انفردت بها وتميزت على أساسها عن باقي الحضارات الإنسانية الأُخرى . فقد تميزت(٩) بدرجة كبيرة من الديمقراطية ، وإتاحة فرص التعليم لأفراد المجتمع ، وبالمثالية التي اتضحت في الاهتمام الشديد بالجانب الخلقي للتعليم والطابع الديني ، والحماس الشديد في طلب العلم ، والدقة المنهجية العلمية (جمع القرآن الكريم والأحاديث النبوية على سبيل المثال) ، واعتبار التعليم نوعاً من العبادة ،والعلاقة الوطيدة بين الأُستاذ والتلميذ،والاهتمام بحسن معاملة المتعلمين .

وفضلاً عن ذلك كله فقد تميزت التربية في الإسلام بتعدد مؤسساتها وتنوعها ، مما جعلها قادرة على أن تخدم أهدافاً متعددة ، وساعدها على أن تكون ميسرة لفئـــات كثيرة ، وبأنها لم تقصر عملية التعليم على مرحلة عمرية معينة . إذ كانت تربية تمتد بامتداد الحياة (وخاصة

المساجد التي التزم المسلمون بالتردد عليها للصلاة ووجدوا في حلقاتها العلمية المفتوحة للجماهير تعليماً مستمراً) . ثم هي تربية اهتمت بتعليم الكبار ، ولم تقصر أو تركز عملها على تعليم الصغار (حدث هذا منذ فجر الإسلام ، الذي اتجه بالدعوة إلى الكبار أولاً) ، كما تأكد في ظل التوجيه السياسي داخل المؤسسات التعليمية ذات الطابع المذهبي ، واستمر موجوداً في مؤسسات الصوفية . وكان تعليماً مفتوحاً ييسر الجمع بين العمل والتعليم ، والاستمرار في التعليم أو الانقطاع عنه لفترات طويلة أو قصيرة .

ولا يغيب عن بالنا أن مؤسسات التعليم في الإسلام إنما كانت نتاجاً للمطالب والتحديات والتغيرات الحضارية التي طرأت على العالم الإسلامي . بل إن كل مؤسسة من المؤسسات التعليمية في الإسلام إنما نشأت استجابة لحاجة اجتماعية معينة . كما أن الأهمية التي احتلتها هذه المؤسسات تباينت واختلفت باختلاف الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية ، بل إن مناهج الدراسة في هذه المؤسسات التعليمية قد تباينت مع تباين التركيب الحضاري والاجتماعي في العالم الإسلامي .

وإذا كانت المؤسسات التعليمية في الإسلام وخاصة المسجد قد فتحت أبوابها على مصاريعها لكل راغب في التعليم دون مقابل ، فإن انشغال سواد المسلمين بلقمة العيش وعدم تكافؤ الفرص الاقتصادية في واقع الحياة قد صرفهم عن التعليم ، بحيث لم يصبح في واقعه عاماً ، وأصبح بعضهم — مرضاة لله — يرد معاهده بمقدار وفي حدود لا تصرفه في الوقت نفسه عن البحث عن لقمة العيش .(١٠)

ولئن كان التاريخ الإسلامي ينقل إلينا سير كثير من مفكري الإسلام وعلمائهم ممن ولدوا في بيوت فقر وسط عامة الناس ، فإنه ينبغي لنا أن ندرك أنه كان وراء حرصهم على التعليم والوصول بأنفسهم فيه إلى أعلى مراتبه ، عوامل كثيرة من بينها — إن لم يكن أهمها — العامل الاقتصادي.فالتعليم في المجتمع الإسلامي بمجانيته وفتحه أبوابه للجميع دون تمييز ، وإعداده الأفراد لبعض الوظائف الهامة ومنها وظائف التعليم ، كان وسيلة تحرير المرء المسلم من أوضاعه الاجتماعية وظروفه الاقتصادية القاسية التي فرضها المسلم على أخيه المسلم في عصور القهر والتسلط دون أن يكون ذلك القهر الاقتصادي من الإسلام في شيء .

أهـــداف التربيـــة في الاسلام :

ويجرنا هذا إلى التعرض ولو بشيء قليل من التفصيل لأهداف التربية في الإسلام . ذلك أن الأوضاع الاجتماعية والحضارية للمجتمع الإسلامي بعد ظهور الإسلام الذي أحدث تغييراً جذرياً في كل ناحية من نواحي حياة المسلمين ، ثم ما أعقب ذلك من تأثر المسلمين باحتكاكاتهم الثقافية مع غيرهم من الأمم ، قد أثر ذلك كله في التعليم ، وفرضت عليه أهدافاً معينة تتمثل في العنصر الديني القوي الذي ميز هذه الحضارة ، وكان له تأثير إيجابي على عملية التعليم ، فالهـــدف الأول للتربية في الإسلام هو تعليم الدين (الإسلامي) إلى جانب أهداف أُخرى مثالية وأُخرى واقعية .(١١) هذا الهـــدف الديني هو أبرز ما يميز التربية في الإسلام ، إذ كانت التربية تبدأ بالقرآن الكريم ومباديء الإسلام ، ومهما نما الفرد ودرس دراسات أُخرى فإن العناية بالدين تظل قائمـــة ، وكان المهم أن تسبق الدراسات الدينية جميع أنواع الدراسات الأخرى غير الدينية .

ومن هنا فإن كثيرين من أبناء المسلمين خاصة الكبار (تعليم الكبار) ، إذا كانوا قد أقبلوا على التعليم في المساجد ، فإن إقبالهم لم يكن لضرورة اقتصادية في المقام الأول وإنما لدافع أو واجب ديني . ذلك أنه من الملاحظ أن تعليم الكبار (التعليم غير النظامي) في عالم الإسلام كان قائماً على هامش الحياة الاقتصادية . إذ أن الحياة الاقتصادية على ازدهارها في كثير من أجزاء العالم الإسلامي خلال شطر كبير من العصور الوسطى ظلت قائمـــة على طرق وأساليب وتنظيمات وقواعد أولية ، بحيث لم تظهر حاجة للإعداد لها عن طريق تعليم نظامي . ولو أن تعليماً نظامياً قام وقتذاك للإعداد للحياة الاقتصادية لكان ذلك ترفاً لا مبرر له. ومن هنا بقيت الثنائية بين تعليم الحياة (الاقتصادية) غير النظامي وتعليم المسجد أو المدرسة (النظامي) ، الأول عملي يتم في سياق الحياة ، والثاني نظري يأتي إضافة إلى الحياة أو استكمالاً لهـــا دون أن يكون له صلة بالإنتاج . (١٢)

إلى جانب ذلك الهدف الديني للتعليم في الإسلام كانت هناك أهداف أُخرى سعت إليها التربية وتتمثل في تلك العناية بالتربية الخلقية ولاسيما في السنوات الأولى من حياة التعليم لما لها من أهمية في تكييف سلوك المسلم السليم وفي نجاحه في الحياة . هذا إلى جانب الهدف الاجتماعي الذي يتلخص في أن الفرد يرتفع قدره بين الناس بمقدار ما يتحلى به من علم وثقافة . فأقبل

الناس على العلم وكان الواحد منهم يحترف حرفة بسيطة يتعيش منها ويطلب العلم لينال هذا المركز الاجتماعي . (١٣)

وإن كان هناك هدف آخر لا نجد له ذكراً في كتابات فلاسفة التربية في الإسلام ، وإن كنا نجده واضحاً ومؤثراً في أحداث التاريخ العربي الإسلامي ، وهو الهدف السياسي العقائدي . لقد تميز التعليم في المجتمع العربي الإسلامي بأنه كان شعبياً لا يخضع لإشراف الدولة المباشر . ولكن منذ فترة مبكرة بدأت السلطة السياسية تتدخل في التعليم وتوجهه لخدمة أغراضها . فمعاوية بن أبي سفيان (في بداية عصر بني أُمية) يعين « القصاص » و « الرواة » في المساجد ليحدثوا الناس بأخبار المغازي (ويدعوا لقضية بني أُمية) . والفاطميون يستغلون التعليم ويؤسسون المؤسسات العلمية والتعليمية (الجامع الأزهر الشريف) لنشر مبادئهم السياسية . والعباسيون ينشئون المدارس (مدرسة نظام الملك في بغداد) لمناهضة المذهب الشيعي ، ونشر المذهب السني والدفاع عن الخلافة العباسية .(١٤)

وإذا كانت هذه أهم أهداف التربية في الإسلام ، فإن مناهج التعليم قد تعددت ولم يكن هناك منهج محدد للدراسة باستثناء القرآن الكريم الذي كان عاملاً مشتركاً في كل مناهج التعليم . ولم تكن هناك مراحل دراسية واضحة أو سنوات محددة للدراسة في أية مرحلة .

ومناهج التعليم في الإسلام (١٥) تتميز عموماً بأنها كانت مناهج مرنة وحرة غير مفروضة من الحكومة أو من سلطة عليا مشرفة على التعليم . وكانت الدراسة التي تهيئها هذه المناهج دراسة فردية ، تعطي عناية للفرد ، وإن أظهر تفوقاً أو نبوغاً تمشت معه وأبرزته . وكان الطالب الكبير يختار المواد الدراسية التي يميل إليها ويستطيع السير فيها ، ويختار الأُستاذ الذي سيدرسها عليه ، ويسير الطالب في هذه المواد وفق سرعته هو وفي المدة التي تناسبه . وكانت المناهج تحقق الأخاء والمساواة وتكافؤ الفرص بالسماح للفقير والغني بالتعلم معاً دون شرط خاص بالسن أو الجنس ، فالتعليم كان في متناول الجميع تبعاً لرغبة كل فرد وقدراته ، بحيث يمكن القول أنها كانت تسير وفق الأساليب الديموقراطية الحقة . وكانت مرونة المناهج تسمح للكبار بأن يفيدوا من ذلك بمتابعة الدراسة سواء بالانقطاع تماماً للدراسة أو بالاستماع والحضور كلما سمح لهم وقتهم بذلك . وكانت الدراسة تعتمد على الاستظهار في معظم الحالات كشرط هام من شروط التعلم ، ولكن مع وجود الاستظهار نلاحظ أن التعليم للكبار

كان فيه كثير من المناقشات والأسئلة بين الطلاب والأساتذة .

السمات العـــامة للتربيـــة في الإسلام :

بعد ذلك التحليل الثقافي الموجز لمؤسسات التربية في الإسلام وأهداف التربية ومناهج التعليم ، نود أن نعرض بشيء من التفصيل لما أوجزناه عن خصائص وسمات التربية في الإسلام . وسنركز على عرض بعض هذه السمات والخصائص التي تفردت بها التربية في الإسلام وتشمل النقاط التالية :

- تربيـــة مـــدى الحيـــاة .
- تربيـــة مفتوحـــة .
- حـــرية الأساتذة .
- الارتحـــال في طلب العـــلم .
- التساوي بين الجنسين في التكليف بالمعرفة .

تربيـــة مدى الحيـــاة :

العلم في الإسلام لا تضيع فرصته بسبب السن ، فالتعليم في الإسلام لا يرتبط بسن معينة ، وقابلية الإنسان للتعلم أمر يستمر مدى الحياة . ولو أنعمنا النظر فيما يهدف إليه كتاب الله « القرآن الكريم » وتتوخاه سنة رسول الله ﷺ ، ويتجه إليه كثير من أئمة المسلمين الأوائل في تربية أفراد المجتمع الإسلامي ، لوجدنا كثيراً من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأخبار السلف من المسلمين تساير معنى التربية المستمرة مدى الحياة .

وإن الملاحظة الدقيقة والفهم العميق لروح الإسلام ونظامه وتدبيراته المختلفة ، كل ذلك يوحي بإرادة قوية من الدين الإسلامي أن يكون رجاله على صلة دائمة بتربية أنفسهم مادامت لهم الحياة . ولذلك دلالة كبيرة كما نتبينها في نزول القرآن الكريم على مدى الزمن الذي ابتعث فيه الرسول ﷺ هادياً ومعلماً — وهو ثلاث وعشرون سنة — حتى أن آخر آية نزلت عليه كانت في حجة الوداع حيث العام الأخير من حياة الرسول عليه السلام ، ودلالة ذلك أن الله تبارك وتعالى شاء لنبيه ﷺ أن يدوم له التعليم وأن تستمر تربيته لأُمته في كل فترة

من فترات حياته التي ابتدأت بالرسالة وانتهت باختيار الرفيق الأعلى . بحيث تكون هذه الحياة إضافات من المعرفة فوق إضافات .(١٦)

ولذلك لم يحدد الدين عمراً ينتهي عنده طلب العلم . وهو كذلك لم يحدد مستوى معرفياً معيناً يعتبر غاية أو نهاية بالنسبة لطالبيه . فهو يحث المسلمين على طلب العلم من المهد إلى اللحد كي نجد في البحث عن المعرفة طول الحياة،ولكي نطمع دائماً فيما هو أكثر مما حصلنا ، والآية الكريمة تذكر (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . أليس في هذا حقيقة وعمق ما يدل عليه « تعليم الكبار » وهو « التربية مدى الحياة » أو « التربية المستمرة » . ذلك الاتجاه التربوي الحديث الذي ينادي بامتداد التربية عبر العمر الإنساني وعدم انقطاعها إلا بانقطاعه . (١٧)

ولعل هذا يلقى نوعاً من الضوء على السبب في انتشار حلقات الدراسة ومجالس العلم في المجتمعات الإسلامية ، وبمستويات مختلفة . وهو أيضاً يفسر لنا سبب التذاوب في تعليم الصغار والكبار في أحضان المسجد حيث كان يحدد كل متعلم البرنامج الذي سيتلقاه . وهو أيضاً يفسر لنا ظاهرة تعدد المواهب في المجالات التحصيلية ، فالشافعي الأديب الشاعر يجدّ في مسائل الدين ويجتهد في قضاياه ومشكلاته حتى يصير إماماً من أئمة الشريعة الإسلامية له مدرسته ومذهبه الخاص ، والجاحظ وهو من أعلام الأدب كان رئيس فرع من فروع المعتزلة له اتجاهاته وفلسفته الخاصة .(١٨) قيل لأبي عمر بن العلاء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : مادامت الحياة يحسن أن يتعلم . وقيل لحكيم : ما حد التعليم ؟ قال : حد الحياة . وقال ابن المبارك : ما يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال سعيد بن جبير : لا يزال الرجل عالماً ما تعلم ، فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى بما عنده فهو أجهل ما يكون . (١٩)

وكان معنى ذلك كله أن المسلم يقتضي عليه ألا ينقطع عن العلم والتعلم إلا بانقطاع حياته ، وهذا معنى « تعليم الكبار مدى الحياة » .

تربية مفتوحة :

والتربية الإسلامية تربية مفتوحة ، وقد فهم السلف ذلك فهماً انعكس على ممارساتهم . لم يكن من الضروري أن يلتحق طالب العلم بمدرسة أو معهد نظامي ، فحلقات الدراسة

ومجالس العلم على مختلف مستوياتها وفي مختلف المجالات كانت منتشرة . ولم يكن من الضروري أن يدرس الطالب مواداً معينة أو كتباً بعينها ليتخرج في مجـــال خاص .

وتفصيل ذلك (٢٠)أن التربية في الإسلام كانت تنظر إلى مبدأ الحرية التعليمية نظرة لا تختلف عن النظرة المعاصرة لها شيئاً كثيراً . فقد كان الأطفال يجبرون على التعليم وبخاصة تعلم تلك الأُمور الضرورية لكل فرد لكي يصبح عنصراً صالحاً في المجتمع ينفع نفسه والمجتمع . إلا أن هؤلاء الأطفال يكتسبون بعض الحرية في انتقالهم إلى مرحلة متقدمة من التعليم ، حيث لا يجبرون عليها بل يختارونها ويحثون على مواصلة التعليم . ولذلك فقد اختلفت طبيعة الدراسة في الكتاب عنها في المدارس والمساجد ، وظهرت المدارس كمؤسسة تعليمية تتوسط الكتاب والمسجد ، وكانت تلحق عادة بالمساجد ، ويتلقى فيها الطلاب تعليماً أرقى مما تلقوه في الكتاب ، وامتازت المدارس بخضوعها للنظام كما في الكتاب ، إلا أن التعليم يرتفع إلى مستوى أعلى . ويجد الطالب حرية مطلقة — فيما بعد — في المسجد حيث ليس هناك موعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم أو التقيد بالاستماع إلى أُستاذ معين أو دراسة علم معين ، كما أن الأُستاذ لم يكن مقيداً بمنهج ثابت ، فالطالب له حرية اختيار الأُستاذ وحرية اختيار المادة وكذلك حرية مواصلة التعليم مع أي أُستاذ يختاره ويرتاح إليه حتى يتخرج على يديه . ولم يكن من الضروري أن يتفرغ الطالب للدراسة والتحصيل أو يستمر في متابعة برنامج دراسي متعاقب الحلقات بشكل فيه اتصال . فالمسلم الكبير — وفقاً لتوجيهات الإسلام كان يجب ألا يكون عالة على غيره وأن يكون منتجاً يأكل من عمل يده ، بل وأن يتحرى مستوى الاتقان فيما يعمل . ومن هنا كان تحصيل المعرفة شيئاً فيه تكامل مع أعمال الجماهير وممارساتهم . فالمسلم يستطيع أن ينظم وقته وفقاً لظروفه مخصصاً بعضه للعمل وكسب العيش ، وبعضه للدراسة . وكان هناك من يعمل بعض ساعات من اليوم ويتعلم في بعض ساعات منه في المسجد . وكان هناك من يتردد بين العمل والتعليم من موسم إلى موسم . وكان هناك من يتفرغ للعلم فترة ثم يعود إلى العمل سنة أو أكثر يتفرغ بعدها للعلم وهكذا . كانت هناك حرية تعلم امتدت إلى مختلف الأبعاد .

وأياً كان الأمر فإننا نرى الإسلام قد فتح باب طلب العلم على مصراعيه لمن يطلبه . ووصلت عظمة الإسلام في هذا الاتجاه إلى فتح الباب في كل مجال وعدم تحديد نهاية للتعليم تعطي لقباً . (٢١)

وانفتاحية النظام التعليمي في الإسلام تتأصل بديموقراطيته المثالية ، ديموقراطية لا تفرق بين الدارسين على أساس من الجنس أو اللون أو العقيدة أو الثروة . كان مجلس العلم أو حلقة الدرس في المسجد ، عالماً متسعاً يتجاوز حدود القطرية والإقليمية والقومية ، ويضم طلاباً من آفاق شتى يندرج تحتها الشرق والغرب . ولم يمنع منه غير المسلمين الراغبين في العلم ، يهوداً كانوا أم نصارى . ولم يستنكف الرجال أن تعلمهم امرأة ، كما لم تحرم النساء أن يتعلمن على أيدي الرجال ولو في مجالس خاصة بهن ، هذا ولم يطرد الفقراء عن مجالس العلم ، فقد تمتعوا بامتيازات أعفتهم من أُجرة الدرس ومؤنة الأكل وكلفة السكن . هذه التربية المفتوحة هي كذلك تعليم مفتوح لكل الأعمار ، وغالباً ما ضمت حلقات الدرس أجيالاً بيولوجية واجتماعية مختلفة . وكان من المعتاد أن يوجد بين الدارسين أحداث بلحى مستعارة ، وشباب ، ورجال مكتملون ، وشيوخ هرمون ، وكلهم يتفاعلون ويتعاونون ويدخلون في علاقات متشابكة ، ويتبادلون الخبرات والآراء مما جعل من مجالس العلم بيئة تربوية متشابكة ، اختفت منها أنواع القسر والعقاب والمنافسة ، وسادتها روح إنسانية متفهمة .

حـــرية الأســاتذة :

وإذا كانت الدراسة مفتوحة للدارسين ، دون شرط أو قيد ، للدخول فيها والخروج منها ، فإن التدريس كان كذلك مفتوحاً للمدرسين ، دون تحديد لسن الفرد أو الإحالة إلى المعاش ، حيث يجبر الأُستاذ على التفرغ أو التعطل الوظيفي . كان التدريس بالنسبة للأساتذة من المسلمين مهنة حياة ، لها يعيشون ، وفيها ينمون ويموتون . فقد كانت لهم حرية العمل ـ طول العمر ـ ماداموا يحتفظون بقواهم العقلية وقدرتهم الحركية ، والتدريس عندهم تعلم وتعليم . وكانت أساليب تدريسهم تنمية لعملهم وتطويراً لمهنتهم وثقافتهم ، فالمناظرة والمطارحة والمناقشة والرحلة ، والزيارات أو لقاءات العلماء الزائرين ، وتبادل الخبرات ، أساليب من شأنها تلقيح الأفكار وإنعاش المعارف ، وتحسين طرق التعليم .

وبهذا الدأب العلمي ، وفي ظل هذه الصحوة العقلية ، ارتفع الأساتذة بمستوى تعليمهم سواء ما كان منه عاماً مشاعاً ، أو ما كان منه خاصاً . فقد تضمنت المواد التي قاموا بتدريسها قيماً علمية رفيعة تشهد بها مؤلفاتهم التي تناولت كافة العلوم والفنون . فضخامة العمل العلمي التي تضمنتها رسائل إخوان الصفا ، أو كتب الفقه للأئمة الأربعة توضح دسامة المادة التي

درسوها لطلبتهم ، والجهد الفكري الذي بذله الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » وقام بتدريسه في المدرسة الملحقة بالجامع الأموي في دمشق يدل على علو المستوى الثقافي لطلبة هذه المدرسة . كما أن أصالة النظريات الاجتماعية التي أبدعها ابن خلدون في مقدمته وفسر على أساسها تاريخ الأُمم وشرحها لطلابه في القاهرة لدليل مؤكد لخصوبة هذا التعلم .

الارتحـــال في طلب العـــلم :

ومن تقاليد التربية في الإسلام أيضاً أن الثقافة والتربية كانتا من عوامل الوحدة الإسلامية، وكانتا مظهراً من مظاهر الوحدة العربية . إذ كانت العلوم واحدة والمناهج واحدة . وكانت القاعدة في التعليم أن يرحل المتعلم وينتقل من قطر إلى قطر آخر من أقطار العالم الإسلامي ، من قرطبة إلى القيروان إلى القاهرة إلى دمشق إلى بغداد إلى بخارى . . كل هذا طلباً للعلم ، وطلباً للتتلمذ على أساتذة معينين ، فما من عالم أو أُستاذ مهم في كافة فروع العلوم في الحضارة الإسلامية إلا وقد تتلمذ وحضر العلم في أكثر من قطر إسلامي ، وإلا وقد درس في مساجد أكثر من قطر .

وكان وراء ذلك كله إيمان المسلم بأن المعرفة ليس لها حد تنتهي عنده ، أو يصير الإنسان عنده غنياً عن المعرفة . فمهما حصل الإنسان المسلم من العلم فإن ما يجهله أكثر مما يعرفه . وفي الآية الكريمة (وما أوتيتم من العـــلم إلا قليلا) . وعلى الكبير في الإسلام أن يسعى في طلب العلم طالما كانت فيه الحياة . وفي ذلك يقول الرسول الكريم : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحـــد » . والأمر الوحيد الذي يضع للمعرفة حدوداً هو طاقة المتعلم وقدراته : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

ولعل هذا يفسر لنا ما كان من أخبار تتعلق بتنقل طلاب المعرفة بين مختلف البلدان الإسلامية يتعلمون ويعلمون ، « فالبخاري » راوي الحديث ، « والشافعي » صاحب المذهب ، و « ابن بطـــوطة » الرحالة ، وغيرهم كثيرون يتنقلون بين البلاد فأثروا معارفهم ونشروا بعض ما يعرفون . وشجع على هذا الاتجاه قول الرسول الكريم : « من سافر في طلب العلم كان مجاهداً في سبيل الله ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيداً » .(٢٢)

لذلك تميزت الفترة المبكرة من عصر الحضارة الإسلامية بالحث على السفر والتنقل واعتبار

الاغتراب أحد الوسائل الرئيسية لتحصيل المعرفة ، ويتكبدون في سبيل ذلك المشاق والصعاب ، وأحياناً كان العلماء يسافرون المسافات الطويلة حاملين كتبهم على ظهورهم في كثير من الأحيان . ويروي أن التبريزي العالم اللغوي المعروف الذي عمل فترة من حياته أستاذاً في المدرسة النظامية ببغداد حمل على ظهره أيام شبابه معجماً كبيراً من تبريز إلى بلاد الشام لكي يدرسه عند شاعر معرة النعمان المشهور أبي العلاء المعري . ويقال إن هذا المعجم كان يبدو في مظهره بعد موت التبريزي مبللاً بالعرق من طول ما حمله هذا العالم على ظهره » .(٢٣)

وتحدث ابن خلدون في مقدمته عن الارتحال في طلب العلم وفوائد ذلك فقال : « إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم « وذلك من حيث أن « السبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فلقاء أهل العلم وتعدد المشايخ يفيذه تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها إنماء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحيح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طريق العلم والهداية . فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال » . (٢٤)

التساوي بين الجنسين في التكليف بالمعرفة :

في التحليل الثقافي للتراث الإسلامي يتضح لنا أن التساوي بين الجنسين في التكليف بالمعرفة وفي حق المعرفة كفله الإسلام ، فالإسلام يعتبر « طلب العلم فريضة على كل مسلم » دون تمييز بين ذكر أو أُنثى .

سوى الإسلام إذن بين الذكر والأُنثى في وجوب تحصيل المعرفة . فالإسلام حين يقرر ما يجب على المسلم لا يخص جنساً دون آخر . وقد قرر الإسلام بالنسبة للنساء والرجال وجوب طلب العلم . وفي ذلك يقول الرسول الكريم : « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، فإن العلم فريضة

على كل مسلم » . وهذا يعني أن العلم النافع يطلبه من ينتمي إلى الإسلام حيث يوجد حتى ولو كان في بلد يختلف عن بلادنا في الدين واللغة والثقـــافة . (٢٥)

والجدل الذي يدور أحياناً بين المسلمين حول قضية تعليم المرأة وما إذا كان جائزاً أن تفتح باب معاهد العلم للرجال والنساء معاً . فإن ردنا على ذلك يتمثل في إثارة قضية من تتلمذ على النساء من رجال المسلمين الأوائل . ولا من تتلمذت على الرجال من نسائهم . ويكفينا أن نذكر حلقات العلم التي كانت تتردد عليها النساء كما يتردد عليها الرجال .

ونحن إذا تابعنا تاريخ الجامع الأزهر الشريف مثلاً وجدنا أنه كان ينظم بعض الدروس للنساء الراغبات في فهم الدين وذلك في أثناء العهد الفاطمي .

وفي العهد المملوكي صار مسموحاً للنساء أن يتلقين العلم بالأزهر الشريف مع الرجال . وكانت النساء تطلب العلم لذات العلم فلم يكن يسعين إلى التخرج والاشتغال بالتدريس كما كان يفعل الرجال . واستمر الأمر على ذلك حتى صار تقليداً بالنسبة للمترددات على حلقات الدراسة بالأزهر الشريف من النساء حتى أول العقد الثاني من القرن العشرين .(٢٦) كانت حلقات الدراسة مفتوحة للذكور والإناث ولكن يظهر أن الإناث كن متواضعات في طموحهن ، فكن عادة يحضرن للتحصيل والتثقيف دون أن تتصل مناشطهن بالتقدم للإمتحان والتخرج . وصار هذا تقليداً أزهرياً ، ففتاة الأزهر الشريف تطلب العلم لذاته لا لشيء خارجي ، حتى ولو كان هذا الشيء الخارجي مجرد الحصول على لقب علمي أو شهادة .(٢٧)

من العرض السابق نستطيع أن نتابع بعد ذلك دور المسجد في التربية في الإسلام في إطار تلك الخصائص والسمات التي تفردت بها التربية في الإسلام وأصبحت من أوضح مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى بل والعصور الحديثة .

المسجد والتربيـــة في الإسلام :

المسجد لغة اسم لمكان السجود ، وعرفا اسم للمكان المعد للصلوات وشرعاً هو كل موضع . . من الأرض لقوله ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً » وعندما تقام صلاة الجمعة في المسجد يطلق عليه : « المسجد الجامع » ، والجامع نعت للمسجد ، وإنما وصف بذلك لأنه علامة الاجتماع . (٢٨)

والتشريعات الإسلامية المتعلقة بالمسجد من أجل ما جاء به الإسلام وحثت عليه الشريعة السمحاء ، لا يوجد في جميع الشرائع والأديان مثيل لها بالنظر لما تضفيه على المسلمين من خير عميم فهي بيوت العبادة وفيها يتمتع المسلمون بأفضل الوشائج بينهم وبين ربهم عز وجل ، والمساجد بجانب هذا الفضل العظيم هي المنتدى والمقصد المهم في الصدر الأول لشئون الدولة ، فكانت تعقد فيها المؤتمرات للشورى وتصدر فيها البلاغات والقرارات العامة ، وإذا دهى أمر دعى الناس إليها بالنداء المشهور « الصلاة جامعة » ، وكان الناس قبل اتخاذ المساجد لا يجدون الوسائل التي تحقق لهم هذا التنظيم الاجتماعي الرائع .(٢٩)

وكان المسجد أول المؤسسات التي أنطلق منها شعاع العلم والتعليم في الإسلام على كافة البشر ولكل من يريد أن يستمع . وكان جمهور المتعلمين في المسجد هم الرجال الكبار . وتلقف الكبار كل ما كان يصدر عن الرسول ﷺ للقرآن حفظاً وللسنة اقتداء .

ولذلك ارتبط تاريخ التربية في الإسلام بالمسجد ارتباطاً وثيقاً ، ولعل السبب في جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو أن الدراسات في سنى الإسلام الأولى كانت دراسات دينية ، تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أُسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال .(٣٠) وقد بكر المسلمون لهذا في إنشاء المسجد ، ففي طريق الرسول الكريم إلى المدينة بني أول مسجد في الإسلام في « قباء » ثم بني مسجده بالمدينة عقب وصوله إليها .(٣١) وكانت حلقات العلم تعقد في مسجد قباء ، كما كان من عادة الرسول ﷺ أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم ودنياهم (٣٢) وكثرت بعد ذلك المساجد في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وفي أكثرها كانت حلقات العلم تعقد والدروس تلقى على الكبار من المسلمين .

ومن أكبر الأخطاء التي يقع فيها المسلمون اليوم أن يتصوروا أن المساجد دور عبادة فقط ، فالمسجد في الإسلام كانت له وظائف عديدة يسهم بها في تنمية المجتمع ورفع مستوى معيشة الأفراد . . ذلك أن التطورات التي طرأت على المجتمع الإسلامي والتحديات التي واجهته هي التي فرضت إنشاء المؤسسات التعليمية التي تخدم هذا المجتمع منذ البداية . ومع ظهور الدين الجديد ظهر المسجد كمؤسسة تعليمية بجانب وظيفته الدينية . وأصبح المسجد محور الحيـــاة الإسلامية ، فالحكم يتم بالتشاور مع المحكومين في المسجد ، والمسجد مكان إعلان

الأخبار الهـــامة للمسلمين . . . الخ .

ولذلك فقد كان محمد رسول الله ﷺ يعلم أصحابه في المسجد ، ومن ثم كان المسجد معهداً للعلم بأدق معاني الكلمة . وترى « أسماء فهمي » أن المسجد الجامع كان بمثابة المدرسة الثانوية في وقت واحد.وفي أول الأمر كان مكاناً للتعليم الأولي أيضاً ، ولكن المسلمين فضلوا فصل تعليم الصغار في أماكن خاصة – عرفت باسم الكتاتيب – خوفاً على المسجد من عبث الأطفال . وفي مسجد النبوة تم وضع مخطط شامل لمواجهة الأحداث الكبرى في حياة المسلمين . وقد انطلقت منه جيوش المسلمين ، وصدرت منه الفتاوي التي نظمت الحياة الاجتماعية وقضت على مشكلاتها . وفيه حكم رسول الله ﷺ بين الناس بالعدل ، فكان المسجد مجلس قضائه للفصل بين الخصوم . وفي المسجد استقبل رسول الله الوفود وتمت المفاوضات وعقدت مواثيق الصلح . وهكذا فإن المسلمين في عصورهم الأولى توسعوا في فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكاناً للعبادة ومعهداً للتعليم ، وداراً للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلاً لاستقبال السفراء . (٣٣)

ويقول « الإمام ابن تيميه » متحدثاً عن المسجد موضحاً ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ : « وكانت مواضع الأئمة ومجامع الأُمة هي المساجد ، فإن النبي ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى ففيه الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب ، وفيه السياسة وعقد الألوية والرايات وتأمير الأُمراء وتعريف العرفاء ، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم . . » (٣٤)

كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ أول مدرسة لتعليم الكبار ، وكان عليه الصلاة والسلام معلمها ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم هم تلاميذها العباقرة الأفذاذ . فيها تعلموا كل أنواع العلم والمعرفة التي تفيد الإنسان في حياته وآخرته ، وتبني جميع جوانب شخصيته فيتخرج منها متكامل الشخصية حقاً .

والمصطفى ﷺ يعرف وظيفته – كمعلم – ويستشعر مسئوليته التعليمية التي حملها إياه سبحانه وتعالى عندما يقول : (إن ربي آمرني أن أُعلمكم ما جهلتم مما علمني) . ويدرك صحابته رضوان الله عليهم أجمعين أنه ﷺ « معلم » حيث يصفه أحدهم بقوله : « ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً » .(٣٥)

ولقد ظلت وظيفة المسجد هي العبادة والتعليم والمدارسة ومقر القيادة والرياسة طوال مدة إقامة الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ، وكذلك استمرت في خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم الذين حرصوا على أن يظل المسجد كذلك مقراً للدولة .(٣٦)

والتزم الخلفاء الراشدون ومن تلاهم أن يؤموا الناس في الصلوات وأن يلقوا فيها الخطب الهـــامة سواء كانت تتعلق بشئون العبادات أم بشئون السياسة العامة للدولة ، وإذا حدث أمر هام أعلنوا أن « الصلاة جامعة » فيجتمع المسلمون بالمسجد لأداء الصلاة ثم يستشير الخليفة ذوي الرأي والتجربة منهم فيما جد من أحداث ، ثم يعلن رأيه للجميع فيلتزم به الجميع . وبهذا كان المسجد الإسلامي « يؤدي دور المجالس النيابية في الوقت الحاضر . . »(٣٧)

يتضح بذلك أن الباعث على بناء المسجد في صدر الإسلام لم يكن مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها ، بل كان ذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية ، وكانت المساجد تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع المسلمين فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين ، أصبح المسجد المكان الذي تذاع فيه الأخبار الهـــامة التي تتعلق بالصالح العام ، ثم استخدمت المساجد بعد ذلك معاهد للتعليم . وكان التركيز كله – أو معظمه – عند ظهور الإسلام على تعليم الكبار . وكان سبب ذلك هو أن التعاليم الدينية موجهة أساساً إلى الكبار . ومن الكبار يتكون من يمكن أن يسموا بالجمهور المسلم . فتعليم الدين لهؤلاء الكبار كان لازماً لنشر الدعوة وتكوين المجتمع الإسلامي. وكان أقوى أثر مصاحب لهذا الهدف الرئيسي هو تهيئة البيئة المتدينة التي ينشأ فيها الصغار فيتلقنون تعاليم الإسلام منها . وقد جعل الإسلام مراكز التعليم لديه وهي « المساجد » معدة لمتطلبات ذلك . فكانت المساجد معاهد لتعليم المبتدئين الصغار ، ومعاهد لإعداد الكبار . وكل من يقرأ عن تاريخ المساجد في أرجاء العالم الإسلامي – الأزهر الشريف ، وعمرو بن العاص ، والقيروان ، والزيتونة ، وقرطبة ، وغيرها – يجد مصداق ذلك ، ويتعرف الدور الهـــام الكبير الذي أدته تلك المساجد في تعليم الكبار .

غلب على الدراسة في المسجد – منذ البداية – في عصر الرسول ﷺ الطابع الديني حتى كاد يقتصر على العلوم الدينية ، ثم تطورت الدراسة مع تطور العالم العربي الإسلامي لتشمل علوماً ومعارف أخرى غير دينية (الدراسات الأدبية والفلسفية بل والعلوم الطبيعية) .

وتدريجياً انتظمت العلوم في مجموعات ومراحل ، وإن بقي الطابع والهدف الديني أساس الدراسة في المساجد . كما تبلور التدريس في نظام « الحلقات » التي يجلس فيها شيخ معين ، في مكان معين ، في وقت معين ، ليدرس موضوعاً أو مواضيع معينة لمجموعة من الطلاب المتفرغين الذين يدرسون بانتظام سنوات طويلة ، بجانب الطلاب غير المنتظمين وغيرهم من رواد المسجد مما يصح تسميته « تعليم كبار » . بذلك اقتصر المسجد أو كاد على « تعليم الكبار » بعد أن أخلى من الصغار الذين تعلموا في الكتاتيب التي أصبحت تمثل المرحلة الأولى من التعليم ووسيلة التطبيع الاجتماعي والحضاري وتوحيد الشعوب الإسلامية عن طريق التعليم ، تعليم أساسيات الدين واللغة العربية . .(٣٨) ولم يكن كل من يذهب إلى المسجد يتعلم من أجل الدين ذاته فقط ، بل قد يتعلم الدين وعلومه ليصبح قاضياً أو إماماً أو معلماً في حلقـــة أُخرى.

هذا من جهة الطلاب ، أما المعلمون فقد كان الرسول الكريم ﷺ قدوتهم وكان المعلم الأول بطبيعة الحال . ولما اتسعت رقعة الإسلام انتقل بعض صحابة الرسول ﷺ وتلاميذه إلى الأمصار الجديدة وتحلق حولهم الطلاب الكبار ، وكان عمر بن الخطاب يرسل الفقهاء والقراء مع الجيوش ليبقوا بالبلاد المفتوحة بعد فتحها ، يدعون للإسلام ويعلمون أحكامه ، وقد أنشأ هؤلاء في كل « مصّر » نزلوا به حركة علمية ، وكونوا مدارس ، وكان لهم تلاميذ كبار ينقلون عنهم .(٣٩)

وكانت حلقات العلم تعقد في المساجد والمكتبات ومنازل العلماء ، وفي قصور الأثرياء والأُمراء عندما ظهرت القصور عقب اتساع الفتوحات ، على أن المساجد ظلت أهم المراكز الثقافية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية .(٤٠)

وقد نشأت الحلقات العلمية في المساجد نشأة دينية ، وكانت قاصرة على تدريس علوم الدين وحدها ، ولكنها ما لبثت أن تطورت مع تطور الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، ومع دخول كثير من معارف ذلك العصر . ولا نزاع أن الدراسات الدينية كانت أهم ما يجذب الطلاب ويعني به المدرسون ، ولكن مع هذا فإن النصوص التاريخية التي بين أيدينا تدل على أن المسجد اتسع للعلوم الدينية ولسواها ، وإذا بالمساجد تتحول إلى أمكنة يدرس فيها — بجانب العلوم الدينية التي استمرت محور الحياة العلمية — الطب والرياضيات والطبيعيات وعلوم الأدب وغيرها . ويروي السيوطي : « أن دروساً مختلفة رتبت في الجامع الطولوني

في مصر وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات » .(٤١) كما يذكر عبد اللطيف البغدادي أن « درساً في الطب كان يلقى في الأزهر في منتصف النهار من كل يوم » .(٤٢)

والملاحظ على نظام « الحلقات » في المساجد أن عدد الطلاب كان يكثر في حلقة عنه في أُخرى تبعاً لشهرة الشيخ وتعمقه في مادته ، وإن كان العدد كبيراً بصفة عامة إذ كان المسجد مفتوحاً للجميع ، وكان عدد طلاب الحلقة فيه غير محدود ، ومن هنا كانت حلقات المشاهير من الشيوخ تشمل مئات من الطلاب . روى القزويني (٤٣) « أنه كان في حلقة درس رضى الدين النيسابوري أربعمائة فقيه من الفضلاء . وكان يحضر مجلس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمائة طالب علم .(٤٤) وكان أبو حامد الاسفرائيني يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة طالب .(٤٥) وفي مصر كان محمد بن سليمان النعالي إمام المالكية في عصره ، وكانت إليه الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً من كثرة من يحضرها » .(٤٦)

في مثل هذا النظام التعليمي المفتوح ، لم تكن المؤسسة التعليمية وهي المسجد هي التي تجذب الطلاب إليها ، ولكن شهرة الأُستاذ هي موضع الجذب ، ومن عوامل شهرته « غزير مشيخته ووافر علمه وحسن سلوكه ..» وتتأصل هذه الشهرة بكثرة عدد الطلاب الذين يتحلقون من حوله . ولم تكن هناك من سلطة تعزل الأُستاذ الفاشل غير سلطة الطلبة عن طريق هجرهم له . والأُستاذ المهجور ليس عليه إلا أن يترك حلقته ويعتزل التدريس . فحضور الدارسين وتواجدهم عند أُستاذ معين تكريس لأُستاذيته ، واعتراف بأهليته للتدريس ، وكان ذلك — في رأي أحد ثقاة التربية (٤٧) — معياراً موضوعياً علمياً له قيمة أصيلة في موازين التقويم المهني .

حلقات العلم هذه في المساجد وفي غيرها كانت تغص بآلاف من الطلبة العرضيين الذين طلبوا العلم لذاته ، ودأبوا في التزود الثقافي الحر بقدر ما تسمح به أوقاتهم وأعمالهم . وهذه الجمهرة المتنوعة من زبائن العلم ، قد جعلت من التربية العليا عملاً شعبياً في متناول العامة والخاصة . وكانت التربية بذلك عملاً يقوم به المتعلم وينمو فيه أكثر مما كانت عملاً يقوم

به المعلم ويرتزق منه ، فالتعليم الذاتي والمستمر كان صفة التربية التي مارسها العرب في الإسلام في عصورهم المزدهرة . فطلاب العلم – بكل إرادتهم الحرة – هم الذين يوجهون أنفسهم نحو المعرفة التي يرغبون فيها ، ويختارون المسلك الذي يرضيهم للسير فيه ، ولم تفرض عليهم قيود نظام تعليمي روتيني ، ولم يحسوا بوصاية أُستاذ يمتلك في يده السلطة ، والمبادأة ، والأمر والنهي ، بل عاشوا كالنحل الدائب يسقطون على الزهر أينما طاب رحيقه .(٤٨)

ثم كان من تقاليد التربية في الإسلام أيضاً التي تدل على سعة الأُفق والديمقراطية الحقة ، حرية الفكر ، وحرية المناقشة ، وحرية الجدل ، فكثيراً ما كان أساتذة من وجهات نظر ومن فلسفات مختلفة ، يجتمعون معاً في المسجد ، يتحاورون ويتشاورون في مسائل العلم . وكانت الدولة تكفل هذه الحرية خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية . ولعلنا نذكر في هذه المناسبة أن الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية على وجه العموم قد تدهورت في العصر الذي خنقت فيه حرية الفكر . ولعل أهم مغزى للتربية في الإسلام ، أن رقي الحضارة وازدهارها كان مقترناً بحرية الفكر ، ولما زالت حرية الفكر تأخرت الحضارة الإسلامية وتدهورت .

وتفصيل ذلك أن الحياة العلمية في المساجد وفي غيرها من مؤسسات التعليم في الإسلام أصابها ما أصاب الحضارة الإسلامية عامة من تدهور بعد أن فقد العرب سيادتهم تدريجياً ، وبعد أن مني المسلمون بأكثر من ضربة كان كل منها كفيلاً بالقضاء على الحواضر الإسلامية موئل هذه المؤسسات التعليمية .

فقد انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات ، وإذا كان هذا الانقسام السياسي لم يصاحبه أول الأمر تدهور سريع في الحضارة ، بل على العكس من ذلك نلاحظ أن الحضارة الإسلامية قد انتعشت وازدهرت في ظل هذه الدويلات المستقلة ، ولكن الأمر سرعان ما ازداد سوءاً نتيجة للثورات الداخلية والاضطرابات والفتن ، ولسيادة العناصر التركية على العالم الإسلامي وخاصة في المشرق ثم الغزو المغولي ومن قبله الحروب الصليبية وحركة الاسترداد في أسبانيا وتحول التجارة العالمية عن العالم الإسلامي ثم سيادة العثمانيين عليه .

هذه العوامل كلها أثرت في الحضارة الإسلامية بكافة جوانبها ومنها العلم والثقافة والتعليم ، وإذا بالتعليم في المساجد يتدهور تدريجياً وخاصة بعد أن تضاءلت الهبات والأوقاف ،

التي كانت تحبس على المساجد والتي كان يصرف منها على التعليم ، ومنها ما كان يخصص للطلاب ، ومنها ما يخصص للأساتذة ، وترتب على ذلك كله ، أن قل عدد الطلاب وتناقصت أعداد الأساتذة بشكل ملحوظ .

خاتمـــــــة :

كانت المساجد في الإسلام ــ ولا تزال ــ أماكن العبادة ، ومراكز التعليم . والجامع الأزهر في مصر خير شاهد على ذلك حتى الوقت الحاضر . وكان التعليم في المسجد حراً حرية مطلقة ، ليس هناك موعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم . وليس الطالب مقيداً بالاستماع إلى أُستاذ معين ، أو دراسة علم معين ، وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت ، فكان الطلاب ومعناهم الأصلي طلاب العلم ، يحضرون على الشيخ الذي يروقهم في حلقته ، فإذا أحب طالب دروساً لشيخ لزمه ، وأخذ عنه ، حتى يتخرج على يديه ، ويجيزه للتدريس فيما بعد . وتلك هي الطريقة الجامعية الصحيحة التي نسيتها جامعاتنا اليوم والتي تفسح المجال حقيقة للتقدم والبحث . . » وبعد . . ألسنا في حاجة إلى الاستفادة من دروس التاريخ ، وما أروع الدرس الذي قدمه المسجد في تاريخ التربية في الإسلام . كانت الدراسة فية ــ أُعني في أروقته ــ تسير على نظام أكاديمي ، يعتمد على الموضوعية والمنهجية في التدريس والتعليم . . إلا أن هذه الدراسة كانت دراسة موسوعية شاملة لمعظم ألوان المعرفة السائدة في حينها . هكذا تعلم ابن سينا ، والفارابي ، وابن رشد ، والحسن بن الهيثم ، وجابر بن حيان ، وابن خلدون ، وغيرهم . . وهـــكذا شهدت المساجد المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي آلاف الحلقات الدراسية التي كانت تعقد في كنف أعمدتها ، كما أن هذه المساجد استقطبت في رحابها عشرات من أئمـــة علماء الإسلام ليتدارسوا فيها ، وليدرسوا لطلبتهم ما اقتاتوه من المشرق والمغرب حيث اتجهوا ضمن وجهتهم لتلقي العلوم من مناهل المعرفة . وهكذا كانت المساجد دائماً في ظل الحواضر الإسلامية « مراكز تربوية » ، فإذا ما حل زائر في مدينة ما قصد جامعها وهو واثق أنه سيجد فيه شيخاً يعطي درساً . . » .

الهوامش والمـراجع

١ ـ محمد نبيل نوفـل :

« تطور أهداف التربية في العالم العربي في العصور الحديثة » ، من بحوث ندوة الأهداف المستقبلية للتعليم في الدول العربية التي عقدها مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في البلاد العربية بالقاهرة في الفـترة من ٢١ ـ ٢٤ أكتوبر ٪ تشرين أول ١٩٧٨ م . ، (القاهرة ، مكتب اليونسكو الإقليمي ، ١٩٧٨) ص ١٠ .

٢ ـ المرجع السابق ، ص ١٠ .

٣ ـ محمـود قمـبر :

« نظم التعليم المفتوح » ، من بحوث المؤتمر الفكري الثاني للتربويين العرب الذي عقد ببغداد في حزيران / يونية ١٩٧٨ م (بغداد ، الجمعية العراقية للعلوم التربوية والنفسية ، ١٩٧٨) ص ٤ ـ ٥ .

٤ ـ أحمـد شـلبي :

« تاريخ التربية الإسلامية » (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٠) ص ١٧٣ .

٥ ـ أحمد فـؤاد الأهواني :

« التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي » (القاهرة ـ مطبعة الحلبي ، ١٩٥٥) ص ٩٢ .

٦ ـ أحمـد حسن عبيـد :

« الإسلام وتعليم الكبار » ورقة عمل مقدمة إلى ندوة الخبراء الدولية عن التنمية وتعليم الكبار في البلاد العربية التي عقدت عام ١٩٧٥ بالمركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار

في العالم العربي – سرس الليان – بالتعاون مع المؤسسة الألمانية للتنمية الدولية (سرس الليان ، المركز الدولي للتعليم الوظيفي ، ١٩٧٦) على الآلة الكاتبة ، ص ٢ .

٧ – المرجع السابق ، ص ١ .

٨ – انظر : آدم متـــز :

« الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، الطبعة الثالثة (القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٥٧) ، ص ٣١٤ .

٩ – راجع الدراسة القيمة التي كتبها محمد نبيل نوفل : « تطور أهداف التربية في العالم العربي في العصور الحديثة » مرجع سابق ، ص ١٢ .

١٠ – محمد أحمد الغنـــام :

« مقالات في تاريخ التربية » (القاهرة ، دون تاريخ) ص ٦٢ .

١١ – محمد نبيل نوفـــل :

مرجع سابق ، ص ١٥ . ،راجع أيضاً :

أحمد شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

١٢ – محمد أحمد الغنـــام : مرجع سابق ، ص ٦٢ .

١٣ – عبد اللطيف فـــؤاد إبراهيم :

« تطور مناهج التعليم » في : مقالات في تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

١٤ – محمد نبيل نوفـــل : مرجع سابق ، ص ١٦ . راجع أيضاً :

خطاب عطية علي :

التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٤) .

١٥ – عبد اللطيف فـــؤاد إبراهيم : مرجع سابق ، ص ٨٦ – ٨٧ .

١٦ – حسين سليمان قـــورة :

« التربية مدى الحياة أساس واضح في منهج التربية الإسلامية » صحيفة التربية ،

العدد الرابع ، أكتوبر ١٩٧٥ (القاهرة – رابطة خريجي معاهد وكليات التربية ، ١٩٧٥) ص ٤٢ .

١٧ – أحمد حسن عبيـــد :

« تربية إنسان جديد لمجتمع عربي جديد هدف التربية في صدر الإسلام » من دراسات ندوة أهداف التعليم في الدول العربية – نظرة مستقبلية » (القاهرة مكتب اليونسكو الإقليمي ، ١٩٧٨) ص ٢٤ .

١٨ – حسين سليمان قـــورة : مرجع سابق ، ص ٤٠ .

١٩ – راجـــــع :

اخوان الصفا : تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، « آداب المتعلمين ورسائل أُخرى في التربية الإسلامية » ، الطبعة الثانية (بيروت ، دار العلم ، ١٩٦٧) ص ١٠١، ١٨٣.

٢٠ – نجدت قاسم الصالحي

« البعد الاجتماعي للفكر التربوي في التراث العربي » (من بحوث المؤتمر الثاني للتربويين العرب – بغداد ، يونية ١٩٧٨) ص ٩ – ١٠ . نقلاً عن أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

٢١ – أحمد حسن عبيـــد :

تربية إنسان جديد لمجتمع عربي جديد هدف التربية في صدر الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٢٥ – ٢٦ .

٢٢ – أحمد حسن عبيـــد : « الإسلام وتعليم الكبار ، مرجع سابق ، ص ٤ – ٥ .

٢٣ – راجع الكتاب التالي :

محمد منير مرسي :

المخطوطات العربية (مترجم) (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٩) ص ٢٣ .

٢٤ – عبد الرحمن بن خـــلدون :

مقدمة ابن خـــلدون (القاهرة ، دار الفكر ، بدون تاريخ) ص ٥٤١ .

٢٥ ــ أحمد حسن عبيـــد : « الإسلام وتعليم الكبار » مرجع سابق ، ص ٣ .

٢٦ ــ المرجع السابق ، ص ٤ .

٢٧ ــ أحمد حسن عبيـــد :

تربية إنسان جديد لمجتمع عربي جديد هدف التربية في صدر الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

٢٨ ــ راجع :

عبد الله عبد الخالق المشد :

وظيفة المسجد في المجتمع المعاصر في : « التوجيه الاجتماعي في الإسلام » من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، الجزء الثالث (القاهرة ، ١٩٧٢) ص ١٧٤ .

٢٩ ــ ناصر بن حمـــد الراشد :

نبذة عن رسالة المسجد ، من بحوث ندوة « دور المسجد في تعليم الكبار في المجتمع المعاصر » التي نظمتها كل من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، والمركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي بسرس الليان عام ١٩٧٨ (سرس الليـــان ، المركز الدولي ، ١٩٧٨) ص ٦ ــ ٧ .

٣٠ ــ راجع مادة « مسجد » في : — The Encyclopaedia of Islam, Art: "Masjid"

٣١ ــ ابن هشام :

سيرة ابن هشام ، الجزء الثاني ص ١٢ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص٢٠ .

٣٢ ــ الغـــــزالي :

إحيـــاء علوم الدين ، الجزء الأول (القاهرة ، إحياء التراث ، ١٣٠٦ هـ) ص ٥٢ .

البخـــــاري : صحيح البخاري (طبعة ليدن ، ١٨٦٢ م) باب الصلاة .

٣٣ ــ — The Encyclopaedia of Islam, op. cit.

٣٤ ــ ابن تيميـــــه :

مجموع الفتاوي « راجع علي عبد الحليم محمود » المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٦) ص ٣٣ .

٣٥ – عبد الفتاح جـــلال :

من الأُصول التربوية في الإسلام (سرس الليان ، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ، ١٩٧٧) ص ٨ .

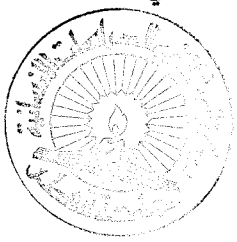

٣٦ – علي عبد الحـــليم محمود :

المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

٣٧ – وزارة الأوقاف وشئون الأزهر :

الأزهر ، تاريخه وتطوره ، من مقدمة الكتاب بقلم محمد البهي (القاهرة ، دار مطابع الشعب ، ١٩٦٤) المقدمة ص ب .

٣٨ – راجع في هذا الصدد الدراسة القيمة التالية :

محمد نبيـــل نوفـــل :

تطور أهداف التربية في العالم العربي في العصور الحديثة ، مرجع سابق ، ص ١١ .

٣٩ – انظر : فصل مراكز الحيـــاة العقلية في كتاب أحمد أمـــين :

« فجر الإسلام » (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٢) ص ١٧٠ وما بعدها .

٤٠ – راجـــع :

أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٤٥ – ٧٧ ، ١١٧ – ١٨٧ .

٤١ – انظر :

السيوطي : حسن المحاضرة (القاهرة ، ١٣٢١ هـ) جـ ٢ ، ص ١٣٨ .

٤٢ – راجـــع :

أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، الطبعة السادسة (القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧٨) ص ١١٢ .

٤٣ – القـــزويني :

آثار البلاد وأخبار العبـــاد ، الطبعة الأولى (القاهرة ، ١٣٢١ هـ) ص ٣١٧ .

٤٤ – الســـبكي : طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ، ١٣٢٤ هـ) جـ ٣ ، ص ١٧٠ .

٤٥ ــ المرجع السابق ، ص ٢٥ .

٤٦ ــ السيوطي : حسن المحاضرة ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

٤٧ ــ محمود قمبر : نظم التعليم المفتوح ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

٤٨ ــ المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .